كتاب أسرار الصلاة

لابن القيم

اللقاء الرابع

أن أداء الصلاة ركن أساس من أركان ديننا العظيم، قد جعلها رسول الله -ﷺ-الفاصل بين الكفر والإيمان:

قال -ﷺ-: ((إِنَّ بيْنَ الرَّجُلِ وبيْنَ الشِّرْكِ والْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاةِ)) صحيح مسلم.

وقال -ﷺ-: ((العَهدُ الَّذي بيننا وبينهم الصَّلاةُ، فمَن تركَها فَقد كَفرَ)) صحيح الترمذي.

وذكر النبي -ﷺ- الصَّلَاةَ يَوْمًا فَقَالَ: ((مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ تَكُنْ لَهُ نُورًا وَلَا نَجَاةً وَلَا بُرْهَانًا، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ)).

إقامة الصلاة سبب للرزق والبركات، والسعادة والخيرات، والفوز والنجاح في الدنيا والآخرة، وتركها والتهاون فيها سبب للخيبة والخسران، والبؤس والشقاء، والعذاب والهلاك في الدنيا والآخرة.

العبادةُ هي الأُنسُ بالله، والسُّرور بمُناجاتِه، سُرورٌ لا ينقطِع، وبهجةٌ لا تنتهِي.

فمن أرادَ السعادة فليلزَم العبادة؛ فالعبادةُ للقلوبِ أهمُّ من الطعام والشرابِ للأبدان.

إذا ضاقَت نفسُك، ودخلَ عليك الضَّجَر، وأحسَستَ بالحاجة إلى الشكوَى، وحزَبَك بأمرٌ، فافزَعي إلى قُرَّة عيون الموحِّدين، وراحةِ نفوسِ المؤمنين، وربيعِ قلوبِ المخبِتين.

افزَعي إلى أم العبادات، وتاجِ الطاعات، افزَعي إلى ما كان يفزَعُ إليه حبيبُك ونبيُّك محمدٌ -ﷺ- قال -ﷺ-: «أرِحنا بها يا بلال!».

ويقول أهلُ العلم: "إن سببَ حُضورِ القلبِ هو الهمُّ؛ فمتى أهمَّك أمرٌ حضرَ قلبُك".

فإذا صرفتَ هِمَّتَك إلى الصلاة حضرَ قلبُك فيها، وحين يمتلِئُ القلبُ بالخُشوعِ يفيضُ على الجوارِحِ غضًّا وخفضًا، وأدبًا وسُكونًا، مُستشعِرًا جلالَ من يقِفُ بين يدَيه، يُصلُّون وهم يعلَمون ما يقولون، يُصلُّون وقلوبُهم بذِكرِ ربِّها مُطمئنَّة.... وحتى نكون مثلهم ونذوق ما ذاقوا نكمل قراء ة كتاب أسرار الصلاة وهذا هو اللقاء الرابع والأخير.

وختمنا اللقاء الماضي بالكلام عن السجود....

فلما قضى صلاته وأكملها ولم يبق إلا الانصراف منها، فشرع الجلوس في آخرها بين يدي ربه مُثنيا عليه بما هو أهله، فأفضل ما يقول العبد في جلوسه هذه التحيات التي لا تصلح إلا لله، ولا تليق بغيره.

عبودية الجلوس للتشهد ومعنى التحيات

ولما كان من عادة الملوك أن يحيوا بأنواع التحيات من الأفعال والأقوال المتضمنة للخضوع لهم، والذل، والثناء عليهم وطلب البقاء، والدوام لهم، وأن يدوم ملكهم.

فمنهم: من يحيّي بالسجود ومنهم من يحيي بالثناء عليه.

ومنهم: من يحيي بطلب البقاء، والدوام له.

ومنهم: من يجمع له ذلك كلّه فيسجد له، ثم يثني عليه، ثم يدعي له بالبقاء والدوام.

وكان الملك الحق المبين، الذي كل شيء هالك إلا وجهه سبحانه أولى بالتحيات كلِّها من جميع خلقه، وهي له بالحقيقة وهو أهلها؛ ولهذا فُسرت التحيات بالملك، وفسرت بالبقاء والدوام، وحقيقتها ما ذكرته، وهي تحيات الملك والملك والمليك.

فالله سبحانه هو المتصف بجميع ذلك، فهو أولى به فهو سبحانه الملك، وله الملك، فكل تحية تحي بها ملك من سجود أو ثناء، أو بقاء، أو دوام فهي لله على الحقيقة؛ ولهذا أتى بها مجموعة معرَّفة بالألف واللام إرادة للعموم، وهي جمع تحية، تحيا بها الملوك، وهي " تُفعُلة" من الحياة، وأصلها " تحييه" على وزن " تكرمه"، ثم أدغم إحدى اليائين في الآخر فصارت " تحيَّة " فإذا كان أصلها من الحياة، والمطلوب منها لمن تحي بها دوام الحياة، كما كانوا يقولون لملوكهم:

⇦لك الحياة الباقية، ولك الحياة الدائمة.

⇦وبعضهم يقول: عش عشرة آلاف سنة.

⇦واشتق منها: ⇦أدام الله أيامك أو أيامه، وأطال الله بقاءك.

✉سئل ابن عثيمين رحمه الله ما حكم عبارة: "أدام الله أيامك"؟ الإجابة: قول: "أدام الله أيامك" من الاعتداء في الدعاء، لأن دوام الأيام محال، وهو منافٍ لقوله تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ)، وقوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ).

⇦ونحو ذلك مما يراد به دوام الحياة والملك، فذلك جميعه لا ينبغي إلا لله الحي القيوم الذي لا يموت.
⇦الذي كل مَلكٍ سواه يموت، وكل مُلك سوى ملكه زائل.

عطف الصلوات والطيبات

✉ثم عطف عليها الصلوات بلفظ الجمع والتعريف؛ ليشمل ذلك كلّما أُطلق عليه لفظ الصلاة خصوصا وعموما، فكلّها لله ولا تنبغي إلا له، فالتحيات له ملكا، والصلوات له عبودية واستحقاقا، فالتحيات لا تكون إلا لله، والصلوات لا تنبغي إلا له.

⇦ثم عطف عليها بالطيّبات، وهذا يتناول أمرين: الوصف والملك.

✉فأما الوصفُ: فإنه سبحانه طيّب، وكلامه طيّبٌ، وفعله كلّه طيب، ولا يصدر منه إلا طيّب، ولا يضاف إليه إلا الطيّب، ولا يصعد إليه إلا الطيّب.

معنى الطيّبات

✉فالطيبات له وصفا وفعلا وقولا ونسبةً، وكلّ طيّب مضاف إليه طيّب، فله الكلمات الطيبات والأفعال، وكلّ مضاف إليه كبيته وعبده، وروحه وناقته، وجنته دار الطيبين، فهي طيبات كلّها، وأيضا فمعاني الكلمات الطيبات لله وحده، فإنها تتضمن تسبيحه، وتحميده، وتكبيره، وتمجيده، والثناء عليه بآلائه وأوصافه؛ فهذه الكلمات الطيبات التي يثنى عليه بها، ومعانيها له وحده لا شريك له: كسبحانك اللهمَّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك.

❍وكسبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

❍وسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، ونحو ذلك.

❍وكلّ طيّب له وعنده ومنه وإليه، وهو طيّب لا يقبل إلا طيّبا، وهو إله الطيبين وربهم، وجيرانه في دار كرامته، هم الطيبون.

أطيب الكلام بعد القرآن

✉فتأمل أطيب الكلمات بعد القرآن، كيف لا تنبغي إلا لله؟ وهي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإن " سبحان الله " تتضمن تنزيهه عن كل نقص وعيب وسوء عن خصائص المخلوقين وشبههم.

❍و" الحمد لله " تتضمن إثبات كلّ كمال له قولا، وفعلا، ووصفا على أتمّ الوجوه، وأكملها أزلا وأبدا.

❍و" لا إله إلا الله " تتضمن انفراده بالإلهية، وأن كل معبود سواه باطل، وأنه وحده الإله الحق، وأن من تأله غيره فهو بمنزلة من اتخذ بيتا من بيوت العنكبوت، يأوي إليه، ويسكنه من الحرِّ والبرد، فهل يغني عنه ذلك شيئا.

❍و" الله أكبر " تتضمن أنه أكبر من كلِّ شيء، وأجل، وأعظم، وأعز وأقوى وأمنع، وأقدر، واعلم، وأحكم، فهذه الكلمات لا تصح هي ومعانيها إلا لله وحده.

التَّسليم على الأنبياء والصالحين

✉ثم شرع له أن يسلِّم على سائر عباد الله الصالحين، وهم عباده الذين اصطفى بعد الثناء، وتقديم الحمد لله فطابق ذلك قوله: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ)[النمل:59]، وكأنه امتثال له، وأيضا فإن هذا تحية المخلوق فشرعت بعد تحية الخالق وقدم في هذه التحية أولى الخلق بها وهو النبي ﷺ، الذي نالت أمته على يده كل خير، وعلى نفسه، وبعده وعلى سائر عباد الله الصالحين، وأخصهم بهذه التحية الأنبياء والملائكة، ثم أصحاب محمد ﷺ، وأتباع الأنبياء مع عمومها كل عبد صالح في السماء والأرض.

⇦ثم شرع له بعد هذه التحية السلام على من يستحق السلام عليه خصوصا وعموما.

📣معنى الشهادتين في التحيات

✉ثم شرع له أن يشهد شهادة الحق التي بنيت عليها الصلاة، والصلاة حق من حقوقها، ولا تنفعه إلا بقرينتها وهي الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة، وختمت بها الصلاة كما قال عبد الله بن مسعود: " فإذا قلت ذلك فقد قضيت صلاتك، فإن شئت فقم وإن شئت فاجلس".

✉وهذا إما أن يحمل على انقضائها إذا فرغ منه حقيقة، كما يقوله الكوفيون، او على مقاربة انقضائها ومشارفته، كما يقول أهل الحجاز وغيرهم، وعلى التقديرين فجعلت شهادة الحق خاتمة الصلاة. كما شرع أن تكون هي خاتمة الحياة.

⇦"فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ".

⇦وكذلك شرع للمتوضئ أن يختتم وضوءه بالشهادتين، ثم لما قضى صلاته أذن له أن يسأل حاجته.

📧اتفق فقهاء المذاهب الثلاثة المالكية والشافعية والحنابلة على أن الخروج من الصلاة لا يكون إلا بالتسليم، فمن خرج من الصلاة قبل التسليم بطلت صلاته، وهذا بناء على أن التسليم ركن من أركان الصلاة، والركن يتأتى بتسليمة واحدة، والثانية سنة.

📣الصلاة على النبيّ

✉وشرع له أن يتوسل قبلها بالصلاة على النبي ﷺ، فإنها من أعظم الوسائل بين يدي الدعاء، كما في السنن عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: "إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله، والثناء عليه، وليصل على رسوله ثم ليسل حاجته".

✉ثم جعل الدعاء لآخر الصلاة كالختم عليها.

✉فجاءت التحيات على ذلك، أولها حمدٌ لله، والثناء عليه ثم الصلاة على رسوله ثم الدعاء آخر الصلاة، وأَذِنَ النبي ﷺ للمصلي بعد الصلاة عليه أن يتخير من المسألة ما يشاء.

سنن الآذان الخمس

ونظير هذا ما شرع لمن سمع الآذان:

❶أن يقول كما يقول المؤذن.

❷وأن يقول رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحد رسولا.

❸وأن يسأل الله لرسوله الوسيلة والفضيلة، وأن يبعثه المقام المحمود.

❹ثم ليصل عليه.

❺ثم يسأل حاجته.

قال -ﷺ-: "مَن قالَ حِينَ يَسْمَعُ المؤَذِّنَ أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسولُهُ، رَضِيتُ باللَّهِ رَبًّا وبِمُحَمَّدٍ رَسولًا، وبالإسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ له ذَنْبُهُ" صحيح مسلم.

فهذه خمس سنن في إجابة المؤذن لا ينبغي الغفلة عنها.

فصل

سرّ الصلاة الإقبال على الله

وسرُّ الصلاة وروحها ولبُّها، هو إقبال العبد على الله بكليّته فيها، فكما أنه لا ينبغي أن يصرف وجهه عن القبلة إلى غيرها فيها، فكذلك لا ينبغي له أن يصرف قلبه عن ربِّه إلى غيره فيها.

بل يجعل الكعبة التي هي بيت الله قبلة وجهه وبدنه، ورب البيت تبارك وتعالى قبلة قلبه وروحه، وعلى حسب إقبال العبد على الله في صلاته، يكون إقبال الله عليه، وإذا أعرضَ أعرض الله عنه، كما تدين تُدان.

للإقبال على الله في الصلاة ثلاث منازل

والإقبال في الصلاة على ثلاثة منازل:

❶إقبال العبد على قلبه فيحفظه ويصلحه من أمراض الشهوات والوساوس، والخطرات المبطلة لثواب صلاته أو المنقصة لها.

❷والثاني: إقباله على الله بمراقبته فيها حتى يعبده كأنه يراه.

❸والثالث: إقباله على معاني كلام الله، وتفاصيله وعبودية الصلاة ليعطيها حقها من الخشوع والطمأنينة وغير ذلك.

فباستكمال هذه المراتب الثلاث يكون قد أقام الصلاة حقا، ويكون إقبال الله على المصلي بحسب ذلك.

كيف يكون الإقبال في كل جزء من أجزاء الصلاة

فإذا انتصب العبد قائما بين يديه، فإقباله على قيُّومية الله وعظمته فلا يتفلت يمنة ولا يسرة.

وإذا كبَّر الله تعالى كان إقباله على كبريائه وإجلاله وعظمته.

وكان إقباله على الله في استفتاحه على تسبيحه والثناء عليه وعلى سُبحات وجهه، وتنزيهه عمَّا لا يليق به، ويثني عليه بأوصافه وكماله.

فإذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، كان إقباله على ركنه الشديد، وسلطانه وانتصاره لعبده، ومنعه له منه وحفظه من عدوه.

وإذا تلى كلامه كان إقباله على معرفته في كلامه كأنه يراه ويشاهده في كلامه كما قال بعض السلف: لقد تجلّى الله لعباده في كلامه.

والناس في ذلك على أقسام ولهم في ذلك مشارب، وأذواق فمنهم البصير، والأعور، والأعمى، والأصم، والأعمش، وغير ذلك، في حال التلاوة والصلاة، فهو في هذه الحال ينبغي له أن يكون مقبلا على ذاته وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه وأحكامه وأسمائه.

✉وإذا ركع كان إقباله على عظمة ربه، وإجلاله وعزه وكبريائه، ولهذا شرع له في ركوعه أن يقول: " سبحان ربي العظيم ".

✉فإذا رفع رأسه من الركوع كان إقباله على حمد ربه والثناء عليه وتمجيده وعبوديته له وتفرده بالعطاء والمنع.

✉فإذا سجد، كان إقباله على قربه، والدنو منه، والخضوع له والتذلل له، والافتقار إليه والانكسار بين يديه، والتملق له.

✉فإذا رفع رأسه من السجود جثى على ركبتيه، وكان إقباله على غنائه وجوده، وكرمه وشدة حاجته إليهنّ، وتضرعه بين يديه والانكسار؛ أن يغفر له ويرحمه، ويعافيه ويهديه ويرزقه.

✉فإذا جلس في التشهد فله حال آخر، وإقبال آخر يشبه حال الحاج في طواف الوداع، واستشعر قلبه الانصراف من بين يدي ربه إلى أشغال الدنيا والعلائق والشواغل التي قطعه عنها الوقوف بين يدي ربه وقد ذاق قلبه التألم والعذاب بها قبل دخوله في الصلاة، فباشر قلبه روح القرب، ونعيم الإقبال على الله تعالى، وعافيته منها وانقطاعها عنه مدة الصلاة، ثم استشعر قلبه عوده إليها بخروجه من حمى الصلاة، فهو يحمل همَّ انقضاء الصلاة وفراغه منها ويقول: ليتها اتصلت بيوم اللقاء.

✉ويعلم أنه ينصرف من مناجاة مَن كلّ السعادة في مناجته، إلى مناجاة من كان الأذى والهم والغم والنكد في مناجاته، ولا يشعر بهذا وهذا إلا من قلبه حي معمور بذكر الله ومحبته، والأنس به، ومن هو عالم بما في مناجاة الخلق ورؤيتهم، ومخالطتهم من الأذى والنكد، وضيق الصدر وظلمة القلب، وفوات الحسنات، واكتساب السيئات، وتشتيت الذهن عن مناجاة الله تعالى عز وجل.

📣الكلام على التسليم

✉ولما كان العبد بين أمرين من ربه عز وجل:

❍أحدهما: حكم الرب عليه في أحواله كلها ظاهرا وباطنا، واقتضاؤه من القيام بعبودية حكمه، فإن لكلّ حكم عبودية تخصه، أعني الحكم الكوني القدري.

❍والثاني: فعل، يفعله العبد عبودية لربه، وهو موجب حكمه الديني الأمري.

وكلا الأمرين يوجبان بتسليم النفس إلى الله سبحانه، ولهذا اشتق له اسم الإسلام من التسليم، فإنه لما سلّم لحكم ربه الديني الأمري، ولحكمه الكوني القدري، بقيامه بعبودية ربه فيه لا باسترساله معه في الهوى، والشهوات، والمعاصي، ويقول: قدَّر عليّ استحق اسم الإسلام فقيل له: مسلم.

الشروع في بيان ثمرات الخشوع

ولما اطمأن قلبه بذكر الله، وكلامه، ومحبته وعبوديته سكن إلى ربه، وقرب منه، وقرَّت به عينه فنال الأمان بإيمانه ونال السعادة بإحسانه، وكان قيامه بهذين الأمرين أمرا ضروريا لا حياة له، ولا فلاح ولا سعادة إلا به.

ولما كان ما بُلي به من النفس الأمارة، والهوى المقتضي لمرادها والطباع المطالبة، والشيطان المغوي، يقتضون منه إضاعة حظه من ذلك، أو نقصانه، اقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم أن شَرَعَ له الصلاة مُخلِفة عليه ما ضاع عليه من ذلك، رادَّة عليه ما ذهب منه، مجددة له ما ذهب من عزمه وما فقده، وما أخلِقَ من إيمانه، وجعل بين كل صلاتين برزخا من الزمان حكمة ورحمة، ليُجمّ نفسه، ويمحو بها ما يكتسبه من الدرن، وجعل صورتها على صورة أفعاله، خشوعا وخضوعا وانقيادا وتسليما وأعطى كل جارحة من جوارحه حظَّها من العبودية، وجعل ثمرتها وروحها إقباله على ربه فيها بكليته، وجعل ثوابها ومحلها الدخول عليه تبارك وتعالى، والتزين للعرض عليه تذكيرا بالعرض الأكبر عليه يوم القيامة.

لكل شيء ثمرة وثمرة الصلاة الإقبال على الله

وكما أن الصوم ثمرته تطهير النفس، وثمرة الزكاة تطهير المال، وثمرة الحج وجوب المغفرة، وثمرة الجهاد تسليم النفس إليه، التي اشتراها سبحانه من العباد، وجعل الجنة ثمنها؛ فالصلاة ثمرتها الإقبال على الله، وإقبال الله سبحانه على العبد، وفي الإقبال على الله في الصلاة جميع ما ذكر من ثمرات الأعمال وجميع ثمرات الأعمال في الإقبال على الله فيها.

ولهذا لم يقل النبي ﷺ: جعلت قرة عيني في الصوم، ولا في الحج والعمرة، ولا في شيء من هذه الأعمال وإنما قال: " وجعلت قرة عيني في الصلاة ".

✉وتأمل قوله: " وجعلت قرة عيني في الصلاة " ولم يقل: " بالصلاة "، إعلاما منه بأن عينه لا تقر إلا بدخوله كما تقر عين المحب بملابسته لمحبوبه وتقر عين الخائف بدخول في محل أنسه وأمنه، فقرة العين بالدخول في الشيء أتم وأكمل به قبل الدخول فيه، ولما جاء إلى راحة القلب من تعبه ونصبه قال: " يا بلال أرحنا بالصلاة ".

📠الراحة بالصلاة

✉أي أقمها لنستريح بها من مقاساة الشواغل كما يستريح التعبان إذا وصل إلى مأمنه ومنزله وقرَّ فيه، وسكن وفارق ما كان فيه من التعب والنصب.

✉وتامل كيف قال: " أرحنا بالصّلاة " ولم يقل: " أرحنا منها "، كما يقوله المتكلف الكاره لها، الذي لا يصليها إلا على إغماض وتكلف، فهو في عذاب ما دام فيها، فإذا خرج منها وجد راحة قلبه ونفسه ؛ وذلك أنَّ قلبه ممتلئ بغيره، والصلاة قاطعة له عن أشغاله ومحبوباته الدنيوية، فهو معذَّب بها حتى يخرج منها، وذلك ظاهر في أحواله فيها، من نقرها، والتفات قلبه إلى غير ربه، وترك الطمأنينة والخشوع فيها، ولكن قد عَلِمَ أنَّه لا بدّ له من أدائها، فهو يؤديها على أنقص الوجوه، قائل بلسانه ما ليس في قلبه ويقول بلسان قلبه حتى نصلي فنستريح من الصلاة، لا بها.

✉فهذا لونٌ وذاك لونٌ آخر.

✉ففرق بين مَن كانت الصلاة لجوارحه قيدا ثقيلا، ولقلبه سجنا ضيقا حرجا، ولنفسه عائقا، وبين مَن كانت الصلاة لقلبه نعيما، ولعينه قرة ولجوارحه راحة، ولنفسه بستانا ولذة.

فالأول: الصلاة سجن لنفسه، وتقييد لجوارحه عن التورط في مساقط الهلكات، وقد ينال بها التكفير والثواب، أو ينال من الرحمة بحسب عبوديته لله تعالى فيها، وقد يعاقب على ما نقص منها.

والقسم الآخر: الصلاة بستان له، يجد فيها راحة قلبه، وقرّة عينه، ولذَّة نفسه، وراحة جوارحه، ورياض روحه، فهو فيها في نعيم يتفكَّه، وفي نعيم يتقلَّب يوجب له القرب الخاص والدنو، والمنزلة العالية من الله عزَّ وجل، ويشارك الأولين في ثوابهم، بل يختص بأعلاه، وينفرد دونهم بعلو المنزلة والقربة، التي هي قدر زائد على مجرد الثواب.

من فوائد الصلاة القرب من الله

ولهذا تَعِدُ الملوك من أرضاهم بالأجر والتقريب، كما قال السحرة لفرعون: (إِنَّ لَنَا لأَجرا إن كُنَّا نحنُ الغالبينَ) [19]، (قالَ نَعم وإنَّكم لَمنَ المقرَّبين) [20].

فوعدهم بالأجر والقرب، وهو علو المنزلة عنده.

فالأول: مَثَله مثل عبد دخل الدار، دار الملك، ولكن حيل بينه وبين رب الدار بسترٍ وحجاب، فهو محجوب من وراء الستر فلذلك لم تقر عينه بالنظر إلى صاحب الدار والنظر إليه؛ لأنه محجوب بالشهوات، وغيوم الهوى ودخان النَفس، وبخار الأماني، فالقلب منه بذلك وبغيره عليل، والنفس مُكبَّة على ما تهواه، طالبة لحظها العاجل.

فلهذا لا يريد أحد من هؤلاء الصلاة إلا على إغماض، وليس له فيها راحة، ولا رغبة ولا رهبة فهو في عذاب حتى يخرج منها إلى ما فيه قرة عينه من هواه ودنياه.

والقسم الآخر: مَثَلُهُ كمثلِ رَجُلٍ دخَل دار الملك، ورفع الستر بينه وبينه، فقرَّت عينه بالنظر إلى الملك، بقيامه في خدمته وطاعته، وقد أتحفه الملك بأنواع التحف، وأدناه وقربه، فهو لا يحب الانصراف من بين يديه، لما يجده من لذَّة القرب وقرة العين، وإقبال الملك عليه، ولذة مناجاة الملك، وطيب كلامه، وتذلُّله بين يديه، فهو في مزيد مناجاة، والتحف وافدة عليه مِن كلِّ جهة، ومكتن وقد اطمأنت نفسه، وخشع قلبه لربه وجوارحه، فهو في سرورٍ وراحةٍ يعبد الله، كأنه يراه، وتجلَّى له في كلامه، فأشد شيء عليه انصرافه مِن بين يديه، والله الموفق المرشد المعين، فهذه إشارة ونبذة يسيرة في ذوق الصلاة، وسرّ من أسرارها وتجلٍّ من تجلياتها.

فصل

الفرق بين أهل السماع وأهل الصلاة

فنحن نناشد أهل السماع بالله الذي لا إله إلا هو، هل يجدون في سماعهم مثل هذا الذوق أو شيء منه؟ بل نناشدهم بالله، هل يدعهم السماع يجدون بعض هذا الذوق في صلاتهم أو جزءا يسيرا منها؟

بل هل نَشَقُّوا من هذا الذوق رائحة، أو شموا منه شمة قط؟

✉ونحن نحلف، عنهم أن ذوقهم في صلاتهم وسماعهم صد هذا الذوق، ومشربهم ضد هذا المشرب.

✉ولولا خشية الإطالة لذكرنا نُبذة من ذوقهم في سماعهم، تدلُّ على ما ورائها.

✉ولا يخفى على من له أدنى عقل، وحياة قلب، الفرق بين ذوق الآيات، وذوق الأبيات، وبين ذوق القيام بين يدي رب العالمين، والقيام بين يدي المغنين، وبين ذوق اللذة والنعيم بمعاني ذكر الله تعالى والتلذذ بكلامه، وذوق معاني الغناء، والتطريب الذي هو رقية الزنا، وقرآن الشيطان، والتلذذ بمضمونها فما اجتمع والله الأمران في قلب إلا وطرد أحدهما الآخر، ولا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عز وجل عند رجلٍ أبدا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل

✉فمتى تجئ الأذواق الصحيحة المستقيمة إلى قلوب قد انحرفت أشد الانحراف عن هدي نبيها ﷺ، وتركت ما كان عليه هو وأصحابه والسلف الصالح، فإنهم كانوا يجدون الأذواق الصحيحة المتصلة بالله عز وجل في الأعمال: الصلاة المشروعة، وفي قراءة القرآن، وتدبره واستماعه، وأجر ذلك، وفي مزاحمة العلماء بالركب، وفي الجهاد في سبيل الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الحب في الله والبغض فيه، وتوابع ذلك، فصار ذوق المتأخرين إلا من عصمه الله في اليراع والدف، والمواصيل، والأغاني المطربة من الصور الحسان والرقص، والضجيج، وارتفاع الأصوات، وتعطيل ما يحبه الله، ويرضاه من عبادته المخالفة لهوى النفس.

✉فشتَّان بين ذوق الألحان وذوق القرآن وبين ذوق العود والطنبور، وذوق المؤمنين والنُّور، وبين ذوق الزَّمر وذوق الزمر، وبين ذوق الناي وذوق (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) [21] وبين ذوق المواصيل والشبَابات وذوق يس والصافات، وبين ذوق غناء الشعر وذوق سورة الشعراء، وبين ذوق سماع المكاء والتصدية وذوق الأنبياء.

✉وبين الذوق على سماع تُذكر فيه العيون السود والخصور والقدود، وذوق سماع سورة يونس وهود، وبين ذوق الواقفين في طاعة الشيطان على أقدامهم صواف، وذوق الواقفين في خدمة الرحمن في سورة الأنعام والأعراف، وبين ذوق الواجدين على طرب المثالث والمثاني، وذوق العارفين عند استماع القرآن

العظيم والسبع المثاني، وبين ذوق أولى الأقدام الصفات في حظيرة سماع الشيطان، وذوق أصحاب الأقدام الصافات بين يدي الرحمن.

✉سبحان الله هكذا تنقسم والمواجيد، ويتميز خُلق المطرودين مِن خُلق العبيد، وسبحان الممد لهؤلاء وهؤلاء من عطائه والمفارق بينهم في الكرامة يوم القيامة، فوالله لا يجتمع محبو سماع قرآن الشيطان ومحب سماع كلام الرحمن في قلب رجل واحد أبدا.

كما لا تجتمع بنت عدو الله وبنت رسول الله عند رجل واحد أبدا.

أنت القتيل بكلِّ مَن أحببته ** فاختر لنفسك في الهوى مَن تصطفي

سماع أهل الحق

✉كان أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم، إذا اجتمعوا واشتاقوا إلى حاد يحدو بهم، ليطيب لهم السير، ومحرك يحرك قلوبهم إلى محبوبهم، أمروا واحدا منهم يقرأ والباقون يستمعون، فتطمئن قلوبهم، وتفيض عيونهم ويجدون من حلاوة الإيمان أضعاف ما يجده السماعاتية من حلاوة السماع.

✉وكان عمر بن الخطاب إذا جلس عنده أبو موسى يقول: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيأخذ أبو موسى، في القراءة، وتعمل تلك الأقوال في قلوب القوم عملها، وكان عثمان بن عفان يقول: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله.

✉وأي والله، كيف تشبع من كلام محبوبهم وفيه نهاية مطلوبهم؟ وكيف تشبع من القرآن؟ وإنما فتحت به لا بالغناء والألحان؟!

وإذا مَرضنا تداوينا بذكركُم ** فإن تركناه زادَ السقم والمرض

✉وأصحاب الطرب والألحان عن هذا كله بمعزل، هم في وادي والقوم في واد.

✉والضبُّ والنُون قد يرجى التقاؤهما ** وليس يُرجى التقاء الوحي والقصب.

✉فأين حال من يطرب على سماع الغناء والقصب بين المثالث والمثاني وذوقه ووجده إلى حال من يجد لذة السماع وروح الحال، وذوق طعم الإيمان إذا سمع في حال إقبال قلبه على الله وأنسه به وشوقه إلى

لقائه، واستعداده لفهم مراده من كلامه وتنزيله على حاله وأخذه بحظه الوافر منه قارئا مجيدا حسن الصوت والأداء يقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم (طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى) [طه: 1-8].

✉وأمثال هذا النمط من القرآن الذي إذا صادف حياة في قلب صادق قد شمَّ رائحة المحبة وذاق حلاوتها، فقلبه لا يشبع من كلام محبوبه ولا يقر ولا يطمئن إلا به، كان موقعه من قلبه كموقع وصال الحبيب بعد طول الهجران، وحلَّ منه محلَّ الماء البارد في شدَّة الهجير من الظمأ، فما ظنُّك بأرض حياتها بالغيث أصابها وابله، أحوج ما كانت إليه، فأنبت فيها من كلِّ زوج بهيج، قائم على سوقه يشكره ويثني عليه.

✉فهل يستوي عند الله تعالى وملائكته ورسوله والصادقين من عباده، سماع هذا وسماع هذا، وذوق هذا وذوق هذا، فأهل سماع الغناء عبيد نفوسهم الشهوانية، يعلمون السماع طلبا للذة النفس ونيلا لحظها الباطل، فمن لم يميز بين هذين السماعين، والذوقين فليسأل ربه بصدق، رغبته إليه أن يحيي قلبه الميت، وأن يجعل له نورا يستضيء به في ظلمات جهله، وأن يجعل له فرقانا فيفرِّق به بين الحق والباطل، فإنه قريب مجيب.

فصل

في التنبيه على نكتة خفيَّةٍ من نكت السَّماع

وفي السماع نكتة حقيقية أصلية يعرفها أهلها، ويجدونها بعد انقضائه وهي أنه قد علم الذائقون منهم أنه ما وجد صادق في السماع الشعري وجدا، وتحرك به إلا وجد بعد انقضائه ومفارقة المجلس قبضا على قلبه، ونوع استيحاش، وأحس ببعده وانقطاعا وظلمة، ولا يتفطن لهذا الأمر إلا من في قلبه أدنى حياة وإلا: فما لجرح بميت إيلام، ولو سئل عن سبب هذا لم يعرفه ؛ لأن قلبه مغمور في السماع وذوقه الباطل ؛ فهو غافل عن استخراج آلامه التي طرقته فيه، وعن أسباب فساد القلب منه، ولو وزنه بالميزان العدل لعلِمَ من أين أتى، فاسمع الآن السبب الذي لأجله نشأ منه هذا القبض، وهذه الوحشة، والبعد.

✉لما كان السماع الشعري أعلى أحواله أن يكون ممتزجا بحق وباطل، ومركبا من شهوة وشبهة، وأحسن أحوال صاحبه أن تأخذ الروح حظها المحمود منه، ممتزجا بحظ النفس، والشيطان والهوى فهو غير صافٍ، ولا خالص، فامتزج نصيب الصادق فيه من الرحمن بنصيب الشيطان، واختلط حظ القلب بحظ النفس، هذا أحسن أحواله، فإنه مؤسس على حظ النفس والشيطان وهو فيه بذاته وهو نصيبه من الرحمن فهو فيه بالعرض، لوم يوضع عليه ولا أسس عليه فاختلط في وادي القلب الماء اليسير الصافي بالماء الكثير الكدر، وغلب الخبيث في الطيب، أو تجاورا والتقت الواردات الرحمانية، والواردات الشيطانية.

✉والمستمع الصاد لغلبة صدقه، وظهور أحكام القلب فيه يخفى عليه ذلك الوقت أثر الكدر ولا يشعر به سيَّما مع سُكر الروح به، وغيبتها عن سوى مطلوبه، فلما أفاق من سكره، وفارق لذة السماع وطيبه، وجد اللوث والكدر الذي هو حظ النفس، والشيطان، وأثر جثوم الشيطان على قلبه فأثر فيه ذلك الأثر قبضا، ووحشة، وأحس به بعدا وكلما كان أصدق وأتم طلبا كان وجوده لهذا أتم وأظهر فإن استعداده هو بحياة قلبه يوجب له الاحساس بهذا، ولا يدري من أين أتى، وهذا له في الشاهد نظائر وأشباه منها:

✉إنَّ الرجل إذا اشتغل قلبه اشتغالا تاما بمشاهدة محبوب أو رؤية مخوف، أو لذةٍ مَلَكت عليه حسّه وقلبه، إذا أصابه في تلك الحالة ضربٌ، أو لسعٌ أو سببٌ مؤلم، فأنه لا يكاد يشعر به، فإذا فارقته تلك الحالة وجد منه ألم حتى كأنه أصابه تلك الساعة، فإنه كان في مانع يمنعه من الإحساس بالألم فلما زال المانع أحس بالألم.

📠أهل الصدق إذا دخلوا في السماع الباطل

✉ولهذا كان بعض الصادقين إذا فارق السماع بادر إلى تجديد التوبة والاستغفار، وأخذ في أسباب التداوي التي يُدفع بها موجب أسباب القبض والوحشة والبعد.

✉وهذا القدر إنما يعرفه أولوا الفقه في الطريق أصحاب الفِطَن، المعتنون بتكميل نفوسهم، ومعرفة أدوائها وأدويتها والله المستعان.

✉ولا ريب أن الصادق في سماع الأبيات قد يجد ذوقا صحيحا إيمانيا، ولكن ذلك بمنزلة من شرب عسلا في إناء نجس.

✉والنفوس الصادقة ذوات الهمم العالية رفعت أنفسها عن الشراب في ذلك الإناء تقذرا له، ففرت منه لاستقامتها وطهارتها، وعلو همتها فهي لا تشرب ذلك الشراب إلا في إناء يناسبه، فإذا لم يجد إناء يناسبه صانت الشراب عن وضعه في ذلك الإناء، وانتظرت أن يليق به.

✉وغيرها من النفوس تضع ذلك الشراب في أي إناء أنفق لها؛ من عظام ميتة أو جلد كلب أو خنزير أو إناء خمر، طالما ما شرب به الخمر، أو لا يستحي الغراب أن يشرب أطيب شراب وألذه في هذه الآنية؟

✉ولو جرَّد الصادق ذلك في حال سماعه لوجد ذوقه من ذلك، ولكن حلاوة العسل تغيب عنه نتنه وقذره وأثر قبحه على قلبه في تلك الحال، فبعد مفارقته يوجب له ذلك وحشةً وقبضا، هذا إذا كان صادقا في حاله مع الله وكان سماعه لله وبالله.

✉وأما إن كان كاذبا كان سماعه للذة نفسه وحظه فهو يشرب النجاسات في الآنية القذرات ولا يحس بشيء مما ذكرناه؛ لاستيلاء الهوى والنفس والشيطان عليه.

✉وأما صاحب السماع القرآني الذي تذوَّقه، وشرب منه، فهو يشرب الشراب الطهور، الطيب النظيف في أنظف إناءٍ، وأطيبه، وأطهره.

❍فالآنية ثلاثة: نظيف، ونجس، ومختلط.

❍والشرابات ثلاثة: طاهر ونجس وممزوج.

✉القلوب ثلاثة

❍والقلوب ثلاثة: صحيح سليم فشرابه الشراب الطهور في الإناء النظيف، وسقيم مريض فشرابه الشراب النجس في الإناء القذر، وقلب فيه مادتان، إيمان ونفاق، فشرابه في إناء بحسب المادتين، وقد جعل الله لكل شيء قدرا، فالعارف مَن نظر في الأسباب إلى غاياتها ونتائجها، وتأمل مقاصدها، وما تؤول إليه.

❍ومَن عرف مقاصد الشرع في سدِّ الذرائع المفضية إلى الحرام، قطع بتحريم هذا السَّماع، فإنَّ المرأة الأجنبية وسماع صوتها حرام، وكذلك الخلوة بها.

📁المحرمات في الشريعة

📁ومحرمات الشريعة قسمان:

✉قسم حُرِّم لما فيه من المفسدة.

✉وقسم حُرِّم لأنه ذريعة إلى ما اشتمل عليه من المفسدة.

⇦فمن نظر إلى صورة هذا المحرم، ولم ينظر إلى ما هو وسيلة إليه استشكل وجه التحريم.

والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيد المرسلين محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، بمنّك وكرمك يا أرحم الراحمين.